هذه المطاعن التي وجّهت الى هيكل كانت حملة منظمة في كل انحاء العالم غايتها اسقاطه وهدم اركان مذهب الشوه وهي سياسة سيئة لا تعود الاّ بالضرر على مذاهب الذين يقاومون هذا المذهب . ولا شبهة ان هيكل ملحد كافر لا يؤمن بالله وينكر الوحي والبعث فليجادلوه في ذلك ان شاؤوا ولكن ما لهم ولتعرّض للحقائق العلمية فهل نسوا ما فعلوا بغليليو وقد اجبروه ان يقسم ان الشمس تدور والارض لا تدور ثم رأوا انهم مخطئون وانه كان مصيباً. ولو سلمنا جدلاً ان هيكل كاذب ومزوّر وخادع وماكر وانه زوّر الصور البيولوجية ووضع راس القرد على بدن الانسان فهل فسد مذهب التشوه بذلك وهل مسألة الاجنة الدليل الوحيد على صحته . فما مثلهم في هذه الامور الاّ مثل من نقحمه بيّنة دليل على صحة قولك فيعترض على دليل منها واحد ويحاول نقضه زاعماً انه ينقض بنقضه الادلة التسعة والتسعين الباقية

امين المعلوف

آفة الشرق

من كتاب بعث به الدكتور ايوب ثابت من بيروت الى الدكتور رضا توفيق بك نائب ادرنه

الاعتقاد المتأصل في عقول البشر في حال فطرتهم والغالب عليهم في عصور جهلهم ان الدين هابط عليهم من قوة فوق قوتهم لا يدركونها وحكمة اسمى من حكمتهم لا يحدّونها وانه لذلك ليس لهم ان يغيروا حرفاً من حروفه ولا ان يتساءلوا ولو للاستنارة عمّا جاء في سطوره. وهذا الاعتقاد هو الذي وقف كل تلك القرون الطوال في سبيل تقدم الانسان ورقيّه عموماً وفي طريق بلوغه الى المدنية الحديثة على وجه خاص الى ان جاءت الثورة الافرنسية فلاشت هذا الوهم وابطلت الزعم بتقديس سلطة الملك فصعدت من ثم بالغرب الى ما هو عليه اليوم من الرقي الباهر والمدنية الزاهرة . وهذا الاعتقاد هو الذي يقف اليوم في سبيل نشوئنا وارتقائنا نحن والشرقيين عموماً . وهو الذي لم تقوَ ثورتنا السياسية على ملاشاته حتى ولا على زعزعته ومن ثم على ازالة الوهم الراسخ في العقول من ان الشرائع المدنية والنظامات الاجتماعية لا تقبل التغيّر لانها هابطة مع الدين من قوة لا تدرك وحكمة لا تحد . والسبب الاهم في ان ثورتنا لم تبلغ وان تكن في القرن العشرين بعض ما بلغته ثورة الغرب — على الاقل من زعزعة هذا الوهم الراسخ في العقول — هو ان ثورتنا السياسية لم تتقدمها ثورة في الافكار كما وقع

للانقلاب الفرنساوي فكانت ثورتنا لذلك غير تامة واصبح نزع التقاليد والاوهام من الامة امراً متعذراً بل يكاد يكون مستحيلاً لانها وان الذين احدثوا الثورة وقاموا بها — ومنهم حكومة اليوم — قد تحاشوا في سيرهم مصادمة التقاليد بل كانوا وما زالوا يجتهدون في تفسير كل اعمالهم بها ويصبغون اجراءاتهم بصبغتها على وهم منهم ان في سلوكهم هذا منتهى الحكمة في السياسة ! فكل ذلك اي مجيء ثورتنا السياسية وليس سيء افقنا شفق للثورة الفكرية من الجهة الواحدة وتردد ولاة الشأن في سياستهم من الجهة الاخرى قد جعل املنا ببلوغنا الاصلاح الذي نتمناهُ املاً ضعيفاً بل قد حملنا على الشك في امكان وصولنا اليهِ ما لم تُنشر ثورة في الافكار مبنية على العلوم الطبيعية والفلسفة المادية فلا تراعي تقليداً ولا تحترم وهماً . فالحالة هذه ولئلا نفشل تماماً بثورتنا السياسية — وهي الفرصة الاخيرة لنا باستبقاء كياننا كأمة مستقلة — قد بقي علينا وعلى امثالك من رسل المدنية الحديثة ممن تؤهلهم مراكزهم السياسية والاجتماعية لان يُسمعوا اذا تكلموا ونقرأ كتاباتهم اذا كتبوا ان ينشروا اعلام هذه الثورة الفكرية فوق رؤوسنا لتلاشي ما عجزت الثورة السياسية عن زحزحتهِ من التقاليد الواقفة سدّاً منيعاً في سبيل مجاراتنا للامم الراقية

ونحن نعلم ان الجهاد تحت هذه الاعلام محفوف بالصعوبات والاخطار بل ليست الموانع التي ستلاقيها المجاهدون في هذه السبيل باسهل مما لقيهُ واضعو الاديان والشرائع في طريقهم من المشاق والاخطار . وذلك لان شعوب الشرق عموماً والعناصر التي تجمعها يطلق عليهِ اسم « الامة » العثمانية خصوصاً ليسوا هم سوى اديانهم بما لحقها من البدع واضيف اليها من الاوهام . بل لا اخال احداً من مفكري الامة ممن ينظر الى اللباب دون القشور وتهمهُ الحقائق اكثر من زخارف الكلام الا معترفاً بان لا قومية عامة لنا بل وجودها فينا وهم اكثر من حقيقة او اقلهُ ان صفتنا السياسية كامة غالبة عليها صبغتنا الدينية كاقوام . حتى ولا عبرة بقومية العناصر نفسها بازاء صبغتها الدينية فالعربي المسلم مثلاً هو غير العربي اليهودي او المسيحي حتى الارمني اليعقوبي هو غير الارمني الكاثوليكي والارثوذكسي ولسنا نستشهد بالمكدوني فاحتالهُ هو نفسهُ صعب عليهِ ان يفهم نفسهُ

هذه هي بعض الموانع العامة الواقفة في سبيل فلاح ثورتك الفكرية وهي وحدها كافية لان تجعل سعيك الى الاصلاح المطلوب امراً شاقاً بل يكاد يكون مستحيلاً فكيف وهنالك في سبيلك عدا ذلك قوات هائلة وهي التي تمثل بعضها ضغطنا المتممين والمقلسين وباقي جماعات الزعماء . فهؤلاء كلهم يتألبون على مقاومة كل تعليم واحباط كل مسعى من شأنهما انارة العامة

خرقاً من انها تستنير فترق وهي التي على جهلها هم يعيشون ويسعدون وباستعبادها للاوهام يعظمون ويرأسون . فلذلك ولئلا تُدرك عروشهم من تحتهم هم يهيجونها بايهامها ان ليست ثورتك الا على الدين فتثور العامة وتهيج عليك كما وقع لك في السنة الماضية حتى قد لا يخجل البعض من ان يشاوروا كيف نقول قولك ولا يسفك دمك . فاذا قلت لهم مثلاً ان الشرائع المدنية والنظامات الاجتماعية وغيرها مما يتعلق بالمجمع الانساني هي مثل كل حيّ خاضعة لسنة النشوء والارتقاء وانها لذلك يلزم ويجب التغيير فيها مجاراة للاحوال والازمان هاج عليك رجال الدين وماجوا بدعوى انك تكفر به اذ هو لا يقبل اقل تغيير فيه حتى ولا يجوز حذف حرف من حروفه فكيف بتغيير الشرائع نفسها وهي جزء متمم له . فاذا اجبتهم ولكن اذا لم نغير فيها بل اذا لم نتغير نحن في كثير من احوالنا ليتسنى لنا مجاراة ما حولنا من الامم الحية الراقية فانا نجمد وننقهقر فنغلب في جهاد الحياة فنفقد استقلالنا السياسي بل وكياننا ايضاً — اذا قلت لهم ذلك صاحوا بسخط وهزء قائلين ان تعاليمك هذه الماسة بقواعد الدين هي التي ستجر بالامة الى الخراب والدمار . ثم اذا قلت لهم هلاّ رجعتم يا رجال الدين عن نزاع معيب بكم وبتعاليم دينكم من اجل كتيبة لا يتجاوز ثمنها بضع مئات من الليرات هاجوا وسخطوا وصاحوا قائلين انك تمتهنهم وتمتهن دينهم . كذلك اذا قلت لهم اهتموا بامور الدين واتركوا السياسة لرجال الدنيا اضطربوا وشكوا من انك تحاول نزع امتيازاتهم عنهم

لعمر الحق ان حالتنا هذه حالة يأس وقنوط بل ليس اسوأ منها حالة — شرائع مدنية لا تغير ونظامات اجتماعية لا تبدّل ودولة بل دول دينية في قلب دولة سياسية . اذن الامة لا تتغير . ومالا يتغير يجمد فينحط فيتلاشى . والعناصر العثمانية ليست سوى اديانها وحبها للوظائف — وهذا ما ابقى ابناء الوطن الواحد في تنافر وتضاغن دائمين كل تلك العصور التي مرّت عليهم . ولئن قال قائل ها ان الترك والعرب والالبان هم على دين واحد فلمَ اذن هذا الخلاف بينهم اذا لم يكن ذلك لاختلاف اجناسهم اجيبنا بل ارضِ بزعمك هم بالوظائف فترى كيف يزول هذا الخلاف من بينهم وكيف تجمعهم « العصبية الدينية » ثم لا تلبث ان تراهم قد الّفوا قومية واحدة » فتضامّوا على الذين ليسوا هم من دينهم وان كانوا من نفس اقوامهم . وكذلك خيّر النصارى الروم والبلغار والارمن والعرب بين ان يظلوا جزءاً من هذه السلطنة الاسلامية وبين ان يتبعوا دولة ليست لغتها من لغتهم ولا جنسها من جنسهم وانما دينها من دينهم فترى كيف انهم يفضلون الخيار الاخير على الاول . ولا عبرة بالقول ان الدافع بهم الى الخيار الاخير هو لانهم يعتقدون ان التساوي بينهم وبين المسلمين ليس بموجود ولا

صيرورتهُ مأمولة فان صدق ذلك على الأقلية الراقية منهم فهو لا يصدق على اكثرهم

فترى انهُ كيف نظرنا الى مسئلة العناصر التي يطلق على مجموعها لغةً اسم الامة العثمانية نجد ان اهم اسباب التفريق بينها هو اختلاف مذاهبها واديانها اكثر من اختلاف جنسياتها. وهذا الاختلاف في الاديان هو الذي اضعف في الماضي وسيكون المانع الاكبر في سبيل جمع قواها وشتاتها في المستقبل. لذلك اصبح من الواجب الضروري ان يوجه كل الاهتمام الى مسئلة اديان العناصر وان يتقب في افضل الطرق للاشاة النزاع والتنافر بين الاقوام من حيث ان امر توحيد اديانها اصبح اليوم ولا مراء امراً مستحيلاً تصوّرهُ حتى في الخيال. فالخطب يوجوب التساهل والوعظ والارشاد الى الاخاء — كل ذلك ضياع وقت وكلام في كلام. وانما الوسيلة الفضلى للاشاة النزاع بين العناصر هي في ملاشاة « العصبية الدينية » منهم. وليس من وسيلة لاضعاف هذه العصبية الاّ باعلان ثورة فكرية مبنية على قواعد العلوم الطبيعية والفلسفة المادية وهي التي اذا اعلنت ان « الناس يولدون احراراً ومتساوين في الحقوق » وان « الشريعة هي مظهر الارادة العامة » وان « السلطة مستمدة من الامة ومستقرة فيها » فهي انما تعلن ذلك لان ذلك هو من مبادئها الاساسية المبنية هي عليها فهو اذن نتيجة طبيعية لها وليس من باب الاجتهاد في التفسير كما هي الحالة في امر الثورة التي أُعلنت في بلادنا. وبين الامرين بون شاسع فالاول يوجب وجوباً والثاني تقضي به دواعي الاحوال فقط. بل اقل ما يكون تأثير مثل هذه الثورة الفكرية المبنية في كلامنا على العناصر العثمانية انهُ يغلب فيها اتخاذها الدين كصفة شخصية مجردة على اتخاذها لهُ كصفة قومية مميزة كما هو امرها اليوم. واقل ما يكون من وراء هذا التأثير ان الامة تحل من قيود التقاليد الدينية والاوهام. ونحن لا نعارض الدين من حيث هو بل انما نعارضهُ من حيث تقاليدهُ المانعة للتقدم والارتقاء فيفتح لنا ذلك مسرحاً للافكار ومجالاً لمجاراة الامم الراقية في علومها ومدنيتها فتتمكن بالتالي من فصل الدين عن السياسة فصلاً تاماً ويصبح الدين معتقد الفرد وتصبح الامة جمهورية بالفعل وان كانت ملكية بالاسم ودينها الوحيد كلمة الحرية « الحقيقية » والعدل « الحقيقي ». فالاخاء لن يوجد بين الناس

ولكن وآسفاه اني لما تحقيق هذا الحلم ودون وصولنا الى ما تتمناهُ لهذه الامة التاعسة من السعادة الحقيقية ما عددناهُ من الصعوبات والموانع الجمّة التي يكاد يكون التغلب عليها امراً مستحيلاً — رسوخ الامة على التقاليد والاوهام من الجهة الواحدة وقوّات رجال الدين وباقي الزعماء من الجهة الاخرى ومطامع الدول فوق كل ذلك. بل كأني بنفس اخواننا من رجال

الدستور وناشري ثورة ٢٣ تموز قد يقفون في وجه ثورتك الفكرية ويحاولون منع نشرك لاعلامها بدعوى انها سابقة لاوانها ومما ينشأ عنها مشاغب وفتن في البلاد . وهنا حد الخلاف بينهم وبيننا . فبينما هم يتصورون انهم يصلون الى شفاء علة هذه الامة بالمراهم والبلاسم اذا نحن نتصورها لا تشفى الا بالعملية الجراحية الفعالة . وبينما هم يتخيلون ان الداء قد اخذ برأ بسياسة اللين والتملق اذا نحن نتخيل الورم يزيد احتقانا . وبينما هم يخشون من ان الحمى قد تميت المريض اذا هي تتراءى لنا من اهم الاسباب لشفائه . مثلا ان فتنة ١٣ نيسان التي اجبنتهم واوقفتهم مترددين في سياستهم هي التي فوزهم الباهر فيها كان من المنتظر ان ينشطهم ويشجعهم فينتهزونها فرصة مناسبة لحمل ثورة ٢٣ تموز انقلابا تاما . وكذلك فتنة آطنة التي ترددوا في امر عقاب مثيريها وزعمائها هي التي كان من اللازم ان يرهبوا فيها بل ليتهم في عقاب زعماء تلك الفتنة وتلوثهم في سياستهم بشأنها هما ما جرّ عليهم جرأة البطريركيات فلزوم مرضاتها فتأييد امتيازاتها بل هما كانا اكبر عاملين في رسوخ الامتيازات الاجنبية نفسها الى اجل بعيد في رقابنا اذا اتخذت اوربا — سواء عن حق او سوء قصد — تلزن حكومتنا في سياستها بهذا الشأن حجة على ضعفنا بل على تعصبنا ايضا

هذا هو نظري الخاص في حالتنا الحاضرة وعلة الداء واسباب الشفاء وان اكن ابديته بكل حرية فكر بل ومجارة ايضا فلانك علمتني في كتابك اليّ ان حرية الفكر هي اساس كل حرية أخرى — الحرية السياسية والدينية والاجتماعية . وان اكن اخطأت في افكاري فقصدي حسن والامور بمقاصدها

والآن اظنك قد ملالت وكنت اود لو لم اطل عليك الكلام ولكن هي عواطفي تتكلم وقد هاجها فيّ هياج الناس عليك في السنة الماضية لقصورهم عن ادراك سمو افكارك وبعد نظرك . وقد ظلّت هذه العواطف مضغوطا عليها في صدري الى ان جاءني كتابك ففكها من اسرها ومثل كل شيء يرتفع عنه الضغط فجأة يتعدى حد الاعتدال . وعلى ذكر الهياج عليك اعترف لك باني صفح عن الذين كانوا السبب فيه بل مشعر بفضلهم عليّ لانهم بهياجهم هيأوا لي اسباب التعرف الى نفس كبيرة في رجل كبير مثلك وهو الذي افاخر بان ادعوه اخا واسعد اذا سمح لي ان اعده صديقا

المخلص لكم

الدكتور ايوب ثابت